نظرات في علم دلالة الألفاظ عند ابن فارس

د. غازي طليمات
عرض د. عدنان خلف أبو جري

قد يتبادر إلى الذهن أن علم دلالة الألفاظ من العلوم الحديثة التي لم يعرض لها اللغويون العرب في العصور القديمة، والحق أن علماءنا سبقوا إلى هذا العلم ووضعوا أسسه الراسخة منذ القرن الرابع الهجري، ومن هؤلاء العلماء أحمد بن فارس اللغوي النحوي المتوفى عام ٣٩٥هـ.

وممن تناولوا بالبحث العلمي الدقيق أصول هذا العلم عند أحمد بن فارس الدكتور غازي مختار طليمات في بحث يضمّه كتاب من مائة صفحة نشرته الحولية الحادية عشرة لجامعة الكويت سنة ١٤١٠ ـ ١٤١١هـ، ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م. أما كاتب البحث فهو مدرس النحو والصرف في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، وأما أحمد بن فارس فواحد من علماء اللغة العربية البارزين في القرن الرابع الهجري. درس ابن فارس على كثير من الشيوخ أشهرهم علي بن إبراهيم بن سلمة القطان ت ٣٤٥هـ وأبوبكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب، ومحمد بن عبدالله الدوري. وأشهر تلامذته بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني ت ٣٩٨هـ. وأشهر كتبه المطبوعة التي قاربت مائة كتاب في اللغة والنحو والسيرة والفقه: مقاييس اللغة، ومجمل اللغة، والصاحبي في فقه اللغة.

يتناول البحث الجوانب الهامة من علم دلالة الألفاظ في آثار ابن فارس

وينطلق من منطلق هام يجعله أساس البحث، وهو أن اللغة توقيف، وأن الله علم آدم الأسماء كلّها، ومن آدم تعلم الناس الكلام، ثم جاء أنبياء العرب فأوحى الله إليهم ما أوحى حتى اكتملت اللغة العربية بما أوحي إلى محمد بن عبدالله ﷺ.

وإذا كانت اللغة توقيفاً فكيف تعلم البشر اللغة وتناقلوها؟ وهل بين اللفظ والمعنى صلة تساعد على تحديد دلالته؟ وما مدى وضوح الدلالات في أذهان المتكلمين باللغة العربية؟ وإذا كانت ألفاظها توقيفية فهل لكل لفظ معنى مستقل؟ وما حظ اللغة العربية من ظاهرتي التّضاد والتّرادف؟ وهل بقيت معاني الألفاظ ثابتة؟ وما مقدار الاتفاق بين آراء ابن فارس والنتائج التي تمخضت عنها الدراسات في هذا المضمار؟

إن أجوبة هذه الأسئلة محور البحث كلّه، وقد حرص الباحث على الإجابة عن هذه الأسئلة في فصول البحث، ومن أهم هذه الفصول الفصل الذي أفرده الباحث للترادف والتضاد والاشتراك، فقد عرض كلام ابن فارس في هذه الموضوعات وأبرز حماسته الشديدة لآرائه، وظاهر كل رأي ذكره بشواهد كثيرة.

ذهب ابن فارس إلى الإقرار بمبدأ الاشتراك في اللغة «ولكنه لم يناقش المسألة مناقشة نظرية مجردة تنتهي إلى نفي الاشتراك أو إثباته» بل صنف رسالة مساها (فتيا فقيه العرب) ذكر فيها مائة مسألة فقهية على صورة ألغاز يحاجي بها الفقهاء ويصوغها من ألفاظ مشتركة على شكل محاورة حيّة كقوله: «هل في الربيع صلاة؟ قال: نعم إذا نضب ماؤه. الربيع: النهر... وقيل: هل يجوز السجود على الخدّ؟ قال: نعم إذا كان طاهراً. الخد: الطريق». وبهذه المحاورة بينه وبين مسؤول يلقي عليه ألغازه يبرهن على أن للكلمة أكثر من معنى، ويقرّ بظاهرة الاشتراك في اللغة العربية. وتتضح ظاهرة الاشتراك في معجمه الفذ (مقاييس اللغة)، فقد أحصى للكلمة الواحدة في هذا المعجم عدة معان، ومما يثبت صحة مذهبه إقرار الباحثين المحدثين بوقوع الاشتراك في اللغة العربية، لكنهم حصروه بعدد قليل من الألفاظ.

وأقر ابن فارس بالتضاد، وألّف فيه كتابا لم يبلغنا، قال في الصاحبي:

«العرب تسمّي المتضادين باسم واحد، وقد جردنا في هذا كتابا». ودحض آراء الذين أنكروا التضاد، ومنهم ابن درستويه ت ٣٤٧ هـ وأثبت بطلان آرائه بالحجة والسماع. والباحثون المحدثون أدركوا هذه الظاهرة، وأولوها عنايتهم، وقد استطاع الباحث أن يتتبع آراءهم وأن يقارن ظاهرة التضاد في العربية بما يماثلها في اللغات السامية الأخرى ليثبت صحة آراء ابن فارس، ثم عرض أهم العوامل التي نشأ عنها التضاد في اللغة العربية، مستنبطاً ذلك كله من كتب ابن فارس ومعجميه (المقاييس والجمل).

أما ظاهرة الترادف فقد أنكرها ابن فارس، وبيّن الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ التي يظنها الناس من المترادفات مستنداً في ذلك كلّه إلى براعته في الاشتقاق وردّ الألفاظ إلى أصولها. وهذا الرأي يوافق المنطلق الذي انطلق منه، وهو النشأة الإلهية للغة، لأن الله سمّى الأشياء بأسمائها وسمّى الشيء الواحد باسم واحد. وما يظنّه غيره من المترادفات ليس أكثر من صفات تنعت الشيء ولا تسميه.

وبعد ذلك يعرض الباحث لتطّور دلالات الألفاظ، فيتتبع العوامل التي نثرها ابن فارس في كتبه، ولم يذكرها على نحو صريح، ويقوده التتبع إلى أن هذه العوامل كثيرة، منها تعميم الدلالة الخاصة كإطلاق كلمة (القوم) على الرجال والنساء، وهي في الأصل خاصة بالرجال، ومنها تخصيص الدلالة العامة كإطلاق لفظة (الحج) على زيارة البيت الحرام في زمان معين من العام بعد أن كانت تدل على مطلق الزيارة، ومنها الانتقال بالمجاورة والسبب كتسمية السحاب (سماء) والمطر سماء، ومنها تأثير الإسلام الذي أحدث تغييراً عميقاً في حياة العرب، تناول جوانبها المختلفة كالتفكير والاعتقاد والأنظمة، واقتضى هذا التغيير تطوير الدلالات، لتغدو اللغة قادرة على ترجمة الأفكار الجديدة بالألفاظ القديمة، فقال: «الزكاة لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره. وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد وسائر أبواب الفقه». ثم قال:

«فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان لغوي وشرعيّ. ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء به الإسلام». ولا يخفى ما

لهذه البارقة الذكيّة من أثر في ربط المفاهيم الإسلامية بالجذور اللغويّة وبالأصول الاشتقاقية، وهو ما اتبعه علماء العرب قديما وحديثا.

ومن عوامل تطور الدلالات انتقال اللفظة من المحسوس إلى المجرّد، وهذه الظاهرة العامة من أخصب العوامل تطويراً للغات كلّها لا للّغة العربية وحدها. ومما ساعد العربية على التفوق في هذا الميدان طبيعتها الاشتقاقية، ودقة التصور في الفكر العربي، وانتقال العرب مع ظهور الإسلام من الفطرة والبداوة إلى الحضارة والتفكير العلمي، وتحوّلهم من الغرائز إلى العقل، ولقد أدرك ابن فارس هذه الظاهرة، وعرضها في معجم المقاييس أجمل عرض كقوله: «النفق سرب في الأرض... والنافقاء موضع يرققه اليربوع من حجره فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه، فانتفق أي خرج... ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان».

ولما كانت الدراسات اللغوية قد نمت وتطورت، وأضافت إلى تراثنا اللغوي نظرات دقيقة أو لمحات علمية جديدة، فقد حاول الباحث ـ وهو يدرس دلالات الألفاظ عند ابن فارس ـ أن يقرن بحثه بهذه البحوث، وأن يجعل منها مقياساً يقيس به آراء الشيخ، ليضع هذه الآراء في مكانها من الدراسات اللغوية قديمها وحديثها في غير تعصّب لابن فارس، وبذلك أسبغ على البحث صفة التجرد والنزاهة، ومجانبة التحيّز، وتلك لعمري شائبة غير محمودة تشوب كثيراً من البحوث، فتنأى بها عن الحقّ، أو تفسدها بأحكام متسرعة عاطفية، أو بتحكيم الهوى والتعصب للموضوع أو لصاحبه.

ومع ذلك كلّه نستطيع أن نقول: إن ابن فارس على عنايته بدراسة مفردات اللغة كلّها لم يضع خطة كاملة لأصول هذا العلم ومناهجه، بل اجتزأ من هذه المناهج بالصوى المرشدة التي تهدّى بها الدارسون المحدثون فيما بعد، وإلى هذه الصوى أشار الباحث غازي طليمات إشارات واضحة كشفت عن عمق الدراسات اللغوية في تراثنا العربي الزاخر.